مختارات فصول

سَفَر

محمد المخزنجي

٦٥

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

(٦٥)

يونيو ١٩٨٩

مختارات فصول - مختارات فصول - مختارات فصول

سَفَر

قصص

محمد المخزنجي

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

تصدر عن

الهيئة المصرية

العامة للكتاب

الغلاف للفنان سعد عبد الوهاب

● أول هـــذا الســـفر ●

نافذة قرب الجناح

أشعر بفرح الانعتاق ، فرحـــا يفعمنى بالخــــفة ، بالطرب الدافع الى دندنة لحن حزين بسخريـــة مرحة : «لما انت ناوى تغيب على طول» • وخالعا حذائى والجورب أروح أستمتع بملامسة (الموكيت) لبــــاطنى قـــدمى العاريتين بينما أطل من النافذة قرب الجــناح •• فى الطائرة قليلة الركاب كأنها خالية ••• أرض المطار فى أول المساء ، وعربة السلم تمضى لتنضم الى صفوف سلالم الطائرات المتراكمة فى الركن •• رجل أمن يتكلم فى جهاز لاسلكى بينما الطائرة تتحرك على المدرج مبتعدة • الآن أوقن فى انعتاقى • الآن سترتفع الطائرة • سأتحرر من هجوم الهموم الكبيرة والصغيرة المتواصل على انسان فقير فى العالم الثالث • سأكون فى مأمن من مصيــــر السجن والاضطهاد المسلط على رقبتى بلا معنى ، كسيف قدرى ، لمجــرد اننى اختلفت يومـــــا ، أو اختلف ، أو سأختلف • وترتفع الطائرة فأشعر بنفسى خفيفا كعصفور

فى الفراغ النظيف المضىء المحمول على أجنحة الهواء ، ويستبد بى طرب المحبة ·· أغازل المضيفات الجميـلات بكلام يشبه الشعر ويلامس ايقاع الأغانى ثم أعود الى النافذة ملقيا آخر نظرة على آخر نقطة من حدود وطنى فى الليل : ركام من نقاط ضوء الشوارع فى تلك المدينة الساحلية التى أعرفها جيدا وتعرفنى ·· مجرة من نجوم مرتعشة الأضواء فى سديم الأرض المظـلم ·· نجـــوم انسانية متواضعة ترتعش وهى تتضاءل مع الابتعاد ، ثم ·· فجأة يبتلعها الظلام ، فكـــأنما يبتلعنى ·· كأننى أنتزع من عمرى ، أو ينزع عنى عمرى ، ويلقى بى فى ظلام لا نهائى سابح ·· لأضيع · أخاف ، وأوارى وجهى فى ليل زجاج النافذة المطلق ·· لعله يستر انهيارى ، لو أجهشت فى البكاء ·

● مدخـــل ●

انسان الجليد

خمس عشرة درجة تحت الصفر ، وسماء الضحى تبدو كسماء ما قبل الفجر : رمادية تومض بنور كسيف مزرق، والجليد الناصع يتراكم فوق الأسطح الجمالونية ، تخترقه دكنة المداخن · الجليد ·· هذا الذى يتساقط الآن رذاذا ناعما ينداح بميل ، شفيفا لا يكاد يرى ،لكن ·· تكشفه رمادية الأشجار المنتصبة ، عارية أغصانها من الأوراق ، والجذوع كأنما غرست فى بياض الجليد ·· تخرج داكنة من بياض الجليد · بياض ، بياض ، بياض · بياض صقيعى ، كثيف وهش ·· يغطى السقوف ـ أفاريز النوافذ ـ الأغصان الخفيضة الأكثر سمكا فى الأشجار ـ الأرصفة تحت هذه الاشجار ـ جنبات أسيجة الأرصفة الشجيرية ـ والنجيل الغافى فى أحواض زهور هذه الأرصفة · كل شىء يشمله الأبيض حتى الطريق الذى تسرع عليه الأقدام المدثرة ، للبشر المسرعين داخل المعاطف الداكنة الثقيلة ، تحت أغطية رؤوس فرائية

كبيرة توشك أن تخبىء كل الملامح ، فكأن نسخا مكررة من انسان واحد تدب مسرعة على جادة الجليد • وننعطف نحو أحد الأبواب •• ندفعـــه وندخـــل ، فيسرع الى احتضاننا الدفء •• نبتدى ـ كما فى كل مكان ـ بخلع أغطية الرؤوس ، القفازات ، ملافح الرقاب ، المعاطف ، ويكاد الانسان ـ فى كل مرة ـ يهتف : كيف انشقت هذه الصالة الدافئة عن كل هؤلاء البشر المحمرى الخـدود ، الملونين ببهجة ، والمتبايني السمت ؟! •• يتحـــادثون بحرارة فى قلب الدفء ، وأعثر بينهم ـ بعد تلفت قليل ـ على صديقى •

درب الجليد

الليل هنا لا يكون أبدا حالك الظلمة ، كان مصابيح الشوارع القوية البيضاء تفيض بضوئها على الجليد ، وكأن الجليد يعكس استضاءته على وجه السماء ، فتبدو في عمق الليل كسماء الفجر •• نور خفيف ، أبيض رمادى مزرق ، يكتنف الوجود ، ويوقظنى أنا من تعود على النوم فى سواد عميق للظلمة • مؤرقا بلا تعب أظل أرنو الى العالم من وراء النافذة •• يخطف بصرى بياض الثلج المضيء ، وتتوه عيناى فى ازدحام غصون الشجر الداكن الذى عراه الشتاء • ويهبط الجليد دون توقف ندفا تنسدل ستائرها الشفيفة على كل المنظر •• تتراكم على الأرض أكداسا من الجليد توشك أن تطمر الأرصفة ، الطريق ، الماشي ، مداخل البنايات، وتكاد لو تركت حتى الصباح ألا تبقى موضعا لقدم • لكن أقداما تبرز لها فى هذا النور الخفيف •• ألمح هناك فى الضفة الأخرى من الشارع شخصين مدثرين يمسكان

بالجواريف • أتبين شيئا فشيئا أنهما فتى وفتاة ، أنيط بهما العمل فى هذا الليل •• قبلة خاطفة ، ويشرعان فى جرف الجليد • قبلة ، ويزيحان الجليد الى الأجناب • قبلة ، ويواصلان شق الطريق • وبأسرع مما يتصور شخص مثلى ينجاب ركام هائل من الجليد ، وينشق للأقدام مبكرة اليقظة طريق الى مساعيها فى الصباح • طريق أمشى عبره فى النهار ، فتظل مرفرفة فى خاطرى عصافير القبل •

سيد فى الجليد

يا عينى يا عينى ! حتى هنا أيضا • سادة وعبيد ! سيد ، بل ملك ، يجلس على الزلاقة وقد تدثر جيدا • غير عابىء بهرولة المترجلين من حوله • غير عـــابىء بندف الجليد تتساقط سابحة من فوقه • غير عابىء بدرب الجليد الأبيض القارس من تحته • لم لا •• وهو قـد تدثر جيدا • وحذاءاه لا يلامسان حتى سطح الجليد ، فهو راكب ، وثمة من يشد الزلاقة • أعبد للجر ؟ وسيد للركوب ؟ حتى هنا ؟ يا سيدى يا سيدى ! يقلب وجهـه المطمئن فى أركان العالم من حوله ، ويلفت نظره شىء ما •• يريده •• ويرفع يده مشيرا بالتوقف ، وينادى من يجر : « ماما ، ماما » ، فتسرع عند قدميه • آه ما أحلى العبد ، وما أجمل سيده ، وما أكثر ما يهفو قلب الأعزب الغريب الى دفء هذه العبودية ، فى مثل هذا الجليد •

شمس على جليد

تسطع الحجرة فجأة ويأتلق زجاج النافذة ، فأقفز من فراشي قفزة فرح غامر ، وأقف وراء النافذة ملوحا أهتف : « ايه يا شمس · ازى مصر · كيف حال الحبايب» وأمعن في حضورها الباهر في الأعالي ، هي الشمس ·· تطل من كثافة الغيم الرمادى ، فتشتد نصاعة الجليد فوق الأسطح ، وعلى فروع الشجر العارى ، وعلى الارصفة ، والطريق · ويتحول الجليد الى ثلج متجانس فوق افريز النافذة بقرب عيني · هى الشمس التى لم أرها منذ أيام بعيدة ، وكأنها الآن تأتى من هناك ، من وطنى الذى تكاد لا تغيب عنه الشمس · أسألها عن أمى ، وأبى ، واخوتى ، وأصحابى ، وأهلى ، ونورا ·· نورا ، وكتبى ، والشوارع ، والناس ، والبيوت ، ولا أعرف لماذا تؤثر ألا تجيب ؟! ·· تتوارى سريعا فى الغيم ، وينكسف السطوع ، تكبوروحى ومع ذلك أرانى فى مكث طويل وراء زجاج النافذة الذى لم يعد فى ائتلاق · لم تعد تنيره الشمس التى هزمتها ــ بعد دقائق عشر ــ

سماء الغيوم وأرض الجليد • ومع ذلك ، لم ينقطع الدفء داخل حجرات كل البيوت : عشرون درجة من الدفء المتواصل ، وهناك ؟! حيث تكاد الشمس لا تغيب والجليد لا يكون ، ما الذى يجعلنا عرضة لارتعاد لا ينقطع ؟ لا ينقطع ! أتذكر سقف بيتنا الذى يبدأ فى التساقط والرشح المذل مع حلول الشتاء • أتذكر وهن أبى ومشيته المرتجفة فوق البلاط البارد • أتذكر حيلة أمى الكسيرة وهى تستعين بلفائف خرق الملابس القديمة تحميها من شر الشتاء • أتذكر يدى نورا الصغيرة الجميلة وأقدامها المزرقة ابترادا فى الشتاء ، أتذكر صقيع زنزانات سجن تجربة المرج ومعتقل القلعة وتأديب القناطر ، واستعيد فى عمق عظامى برد الشوارع والبيوت • تطيش فى أفق ذاكرتى صورة لسرب طائرات خاصة تزف ابنة بليونير من الثغر الى القاهرة • وأوقن أننا فى حاجة الى أكثر من مجرد شمس فى الأعالى •

★ تنخطف روحى بالجلال اذ ألمحه خارج زجاج المدخل ، يحط على الجليد ، ويتلفت ، ويتواثب ، وينفض جناحيه قبل أن يطير • يطير فى سماوات السبع عشرة درجة تحت الصفر • يطير ويخطف انبهار روحى بهذا الكائن الصغير الذى يرف بدفء الحياة رغم برد الجليد الساحق •

★ يعود يحط فى ساحة روحى •• يتلفت ويتواثب، ويرفرف ، ويطير •• هذا ، اذ أبصر علبة شيكولاتته فارغة ــ بشكل بيت برتقالى صغير ــ علقها طفل ، أو علقها له والداه ، فى غصن شجرة قرب نافذة ، لتكون عشا تأوى اليه العصافير ! لقد غطى الثلج العش ، والنسمة الباردة تؤرجحه مهجورا • ينطلق العصفور سهما عنيدا فى الأفاق الباردة ، وعبر تقدير روحى ، ويسكن قلبى هذا الطفل الذى لا بد أنه الآن يراقب من

وراء النافذة ـ مكسور الخاطر ـ بيت حنانه المهجور ·· تؤرجحه الريح ·

★ أسمي الحمام : « عصافير كبيرة » تكريما لذكراه ، وأنا أبصر الحمائم وهي تحلق أسرابا فوق ضفاف نهر « مسكوفا » ، وتستريح على أغصان الشجر العاري ، ثم تنطلق بعيدا ، وتهبط ·· تحط على ساحة غائرة في الأرض يكسوها الجليد ، وتلتقط · أعرف أن هذه بحيرة « نوفو ديفتشي » التي تجمدت وغطى الجليد ضفافها · أعجب : ماذا يلتقط الحمام من الجليد ؟! ·· لكن عجبي ينزاح بروع مفاجيء ، ويخفق قلبي رعبا على أطفال أبصرهم يلهون على منحدرات الجليد ·· يتركون أجسامهم المدثرة الصغيرة تنزلق في صخب ، من الأعالي وحتى سطح البحيرة · أليس يخيفهم انكسار غطاء الجليد ؟!

★ لا أدري لماذا يتراجع في بانورامة روحي ذلك العصفور ، وتتقدم بثبات فكرة غريبة : أن هؤلاء الأطفال الصاخبين فرحا بالجليد ، يحققون ـ بهذا اللعب ـ خرافة مقدسة ·· أليسوا يمشون على سطح الماء ؟! ·· الماء المتجمد ·· الجليد ، الأبيض ، الذي أبصره في

الآفاق يطمح الى تغطية الدنيا جميعا ، لولا تظل تخترقه هنا وهناك : أشجار زرعهـــا الناس ، وأبراج شادهـــا الناس ، وقلاع ذهب قبابها الناس ، وعمائر ·· تسمق راسخة في الأعالى، وتحط عند أطراف مداخلها الزجاجية تلك العصافير ·

• ترددات •

ربما بدأت انتبه لما يحيط بى فى اللحظة التى شعرت فيها بالدفء بعد الصقيع · رأيت نفسى فى الغابة محاصرا بخليط متنافر من حيوانها ·· دببة ، وثعالب، ونمور ، وأرانب وتندرا ، ولاما ، وسناجب ، وغزلان ، وأبقار ، ونموس · وشعرت بالاستغراب الذى يحل بنظرة الانسان عندما يمعن فيما حوله من قريب بينما أتأمل نفور الشعر الدقيق فى بعض الفراء ورقاده فى بعضه الآخر · وتخيلت مذبحة الرصاص المنطلق والدم المسفوح والنفخ والسلخ ·

طفا على تيار ذهنى قول توينبى عن رد الفعل للمناخ ، وربط الرازى بين البرد واستنهاض الهمم البشرية · لكننى لم استطع التخلص من احساسى بالعار الانسانى لهذه المذابح التى تنتهى الى أغطية رؤوس وياقات فراء وقفازات ومعاطف · واندفعت جانبا لألقى ببصرى عبر زجاج النوافذ الى الخارج ، بعيدا عن هذه

الغابة التى تغطى أجساد ورؤوس وأيادى الرجال والنساء من حولى فى الترام . ولم يكن ممكنا أن أرى أى شيء خارج النوافذ .

كان بخار الانفاس المتكاثفة على الزجاج قد تجمد وصار طبقة من الجليد الحاجب للرؤية . وبدأت أحس بتسلل البرد من جديد وأنا أحاول خمش طبقة الجليد على الزجاج لعلى أفتح فيها ثغرة الى الخارج ، لكنها كانت شديدة الصلابة تؤلم أظافرى فأحجم عن الاستمرار . ويفاجئنى بأسرع مما أتوقع الوصول الى محطتى عندما ينفتح أمامى الباب .. يندفع الى ساحة بصرى بياض ركام الثلوج فى الشوارع .. يندفع نحوى صقيع الثمانية وعشرين درجة تحت الصفر ، وتندفع يدى بالغريزة لتتأكد من وجود هذه الطاقية على رأسى ، فتغوص أصابعى مرتاحة فى فراء الأرنب الجبلى الذى صنعت منه .

الآخـــر

أخيرا انفجرت فى وجهـــه : « أنت لست انســانا يا « آليكس » • أنت خنزير • خنزير خنزير خنزير » • ولم يكن النعت وليد لحظة الغضب ولا ابن اندفاعتها ، فقد كان تعبيرا تشكل عبر أيام طويلـــة من معـــاناة تصرفاته الخنزيرية كلها •• ابتداء من اعلاء صـــوت مسجله كأنه فى صالة « ديســـكو » حتى بعد منتصف الليل . ومرورا باغترافه من أكلى دون استئذان وتركه الأطباق وسخة مع ذلك ، وأخيرا طريقته الفظه فى طرق باب « التواليت » لكما بقبضتيه وركلا بقــدميه وجئيرا بكلمات استعجال مقززة •

خنزير ، صرخت بها فى وجهه فارتج بدنه المنفوخ لحظة ثم جرى الى المطبخ يحضر سكينا يقتلنى به ،وجريت الى المنور أحضر عصا التنظيف لأحطم بها دماغه • ولحظة خرج كل منا للآخر ، كان « فيكتور » جــارنا الرقيـــق المسالم ساكن الغرفة الثالثة فى الشقة يحول بيننا •

وأعترف أنني انسقت الى المجـاملة ، استجابـة لالحاح الجار الثالث بالغ التهذيب في التقريب بيننـا بعدما أصر على جمعنا حول الشاى في غرفته •• قلت له : « يا فيكتور •• انني أعرف أن آليكس انسان طيب ويعرف الأصول ، لكنه عندما يشرب يصير شخصا آخر »، بينما كنت أشك أن « آليكس » في سكره وصحوه لم يكن غير خنزير •

ولم يدهشني بالطبع أن ينهض آليكس ويصـافحني بحرارة اذ قدرت أنها عاطفية اللحظة المؤقتة التي وضعنا فيها فيكتور • لكن الذى أدهشني ـ بعدهـا ـ أن أرى آليكس وكأنه شخص آخر : يتعامل معى ، ومع النـاس جميعا ، برقة بالغة وتهذيب ومودة •• وينحف في أثناء ذلك •• ينحف بشـكل مخيف ، حتى أيقن الجميع أنه سيموت •

حين مالت

حين مالت على وفاجأتنى بقبلـــــة على فمى ، فى الشارع ، ارتبكت بشدة · وصعدت الى الأتوبيس وأنــا أتخيل أن كل الركاب ينظرون الى · لكنهم لم يكونـــوا ينظرون ·

وقررت أن أخصص الغد لقبل الشوارع ، الأوربية، المباحة هذه ·

وكأننى أتهيأ لاجراء تجربة علمية مثيرة ، أوقفتهـــا عند محطة أتوبيس الأمس · واستحضرت ما يقـــــارب خمس عشرة سنة من أحاسيس القبل الشرقية ، القبـــل السرية · وفى مواجهتها ، بالضبط ، ملت بفمى نحـــو فمها · ·

أحسست بطعم الشفاة الناعمة على شفتى ، نعم ، لكن الأكثر أننى أحسست فى أثناء ذلك بابتراد ، وكأن مؤخرتى عارية ·

موقف الحديقة

كدت أوقن فى مقولة الجمال الخالص لهذه الغابــــة الشمالية التى أعلن عن تمام تطهيرهـــا حتى صــارت حديقة · وتحمست حتى أوشكت على الهتاف · لكننى ما كدت أهتف حتى دهمتنى رؤية الخنزير البرى وهــو ينطلق قادما من بين تلة الخمائل على يمينى ويندفع فى سهل النجيل وزهور الهندباء الذى وقفت فيه · ثم اختفى كبرق أسود فى دغل أشجار التفاح والكرز على يسارى·

خنزير برى · لا أشك فى ذلك أبـــدا ، فقد رأيت أنيابه الطويلة البارزة ، وسمعت صوت نخيره الوحشى· وأوقعتنى ـ دون ملامسة ـ اندفاعته الغبية كعاصفــة عمياء ·· دانة من اللحم البليــد ، لو اصطـــدمت بى لاخترقتنى · لكننى وقعت بعيدا ربما بفعل ضغط الهواء الذى اكتسحته الاندفاعة ، وربما بتأثير التخلخــل الذى حل بســاقى من أثر الرعب والمفاجــأة · ثم اننى فى نهوضى ، مذهولا ، على أربع ·· لمحت انحناءة أعـــواد الزهور والعشب الذى وطأته حوافره · وشرعت أجرى

نحو مبنى ادارة الحديقة البعيد الغارق بين كثافة الأشجار والخمائل ·

مشوشا لاهثا من أثر الركض والارتعـــاب وقفت أقص على أحد مسئولى الحديقة ما رأيته · وبــدلا من تصديق حكايتى ، أو حتى احتمالهـــا ، رأيت عينيــه تتشككان فى ، ولمجرد أننى غريب · لهذا كان اصرارى على شده للقيام معى والذهـــاب الى حيث عصف البرق البليد الأسود ودهس العشب والأزهار · وكان احباطى لا مزيد عليه اذ تكفلت عصارات الحياة ومرونة الغضاضة الخضراء فى الأعواد باستعادة انتصـــابها ومحــو كــل ما رأيته من انثناء وانحناء · فأطرقت أمامه ·

أطرقت ثانية أو ثانيتين بعدهما لفنى دوار سريــع وغبت عن الوعى ، لكننى أتذكر بجـــلاء آخر صـــورة التقطتها عيناى المفزوعتان قبل غيابى : · · · كنت أنظر فى اطراقى الى أسفل ، وأمعنت فجأة ، فصعقتنى رؤيــة الحـــافرين يخرجـــان من أسفـــل بنطـال مرافقى ويوشكان على الاختفاء فى غزارة العشب ·

● زوايـا للـرؤية ●

على الخط الأبيض

في درجة ٣٠ تحت الصفر كان طبيعيا أن نخالف اشارات المرور التي ينظمها مركزيا عقل الكتروني بعيد . لم ننتظر النور الأخضر ، بل حتى لم نعمد الى عبور الشارع الفسيح من نقطة عبور المشاه . واندفعنا من رصيف الثلوج الى الاسفلت راكضين ، لكننا على خط المنتصف ، الأبيض ، حوصرنا .

لم يكن خطا واحدا في حقيقة الأمر هذا الذى يقسم الشارع الى اتجاهين لمرور السيارات ، بل خطين متوازيين يفصل بينهما شريط ضنين وسع بالكاد مواطيء أقدامنا، وقد وقفنا متجاورين نتضاغط بجنوبنا لحد الالتحام ، ونهتز كستارة من الارتعاب المتماوج .. مرة الى الوراء من فزع اقتراب المركبات المارقة أمامنا ، ومرة الى الأمام من رعب اقتراب صوت المركبات خلف ظهورنا . ولم يكن بيننا وبين احتمال الموت غير سنتيمترات قليلة ، ولحظة خاطفة .

لحظة خاطفة ، من العجيب أننا حددناها معا ، ككائن واحد صاح صيحة واحدة : « اجر » ، فركضنا حتى رصيف الثلوج الآخر ، ثم وقفنا نترامق مستغربين مرتين : مرة لأننا نجونا ، ومرة لأن كلا منا كان يتساءل ـ لا بد ـ في داخله : أين ذهبت رائحة الكارى التى نتناقل فى حلقات الأجانب المنعزلة أن الهنود ينضحون بها ؟ ورائحة عرق الزنوج الشهيرة فى الثرثرات ؟ ورائحة السمك المتعفن الذى يشاع أنه طعام للفيتناميين؟ ورائحة الفودكا والبصل التى صدقنا أنها تفوح من فم كل روسى ؟ •• فقد كنا على الخط الأبيض خمسة ، ولم يكن هناك غير تضاغطنا ، ورائحة الصقيع •

لغة ·· جديدة

ـ ١ ـ

لم أكن أتصور أن شدة فرحي يمكن أن تقودني الى هلاك · فاليوم جننت في الغابة التي تطمرها الثلوج · جننت فرحا اذ أيقنت أنني الآن ، وبعد شهور طويلة من الاستحالة ، أستطيع أن أتكلم باللغة الجديدة · وجدت نفسي هذا الصباح ، وعلى غير انتظار ، أتدفق ·· أتكلم بطلاقة مع جاري في المسكن ، ومع المرأة في كشك التذاكر ، والراكب الى جواري في الباص · وبين جذوع الأشجار العارية ، وفوق ركام الثلوج التي لا بد أنها تساقطت بغزارة في الليل ، وجدت نفسي أعبر بسلاسة عن كل فكرة تعن لي ، فجننت من شدة الفرح ·

تراكضت خفيفا دون أن أحس باعاقة ركام الثلوج لقدمي · وقفزت عاليا · ودرت حول نفسي · وهتفت بكل الكلام الحلو الذي خططت أن أقوله للبنت التي تعجبني وأحس أنني أيضا أعجبها · قلت لها كثيرا ··

وقلت : أنت حلوة أحلى من العسل · وقلت : قوامــك سحر خالص · وقلت : أمتلك العالم يا وردة لو أمتلكك · ثم خرست مرعوبا لاكتشافى المفاجىء أننى ضــعت فى غابة تغطيها الثلوج ··

جذوع شجر سوداء وثلج أبيض ·· جذوع جذوع جذوع وثلج ثلج ثلج · ولا أثر للــدرب المعبــدة التى كنت أقطعها الى هدفي عبر الغابة ·· طمرتهــا الثلوج الغزيرة التى لا بد أنها تساقطت فى الليل · ركــام من الثلوج قد يكون مخفيا تحته بركة مياه عميقة ، أو بئرا، أو حفرة مملوءة بهشاشة الثلج أو ورق الخريف أو مالا أعرف · فدرت أنظر فى كل الاتجاهات · وما من دليل غير آثار قدمى التى أوغلت طويلا فى غابــة الثلوج · عليها يمكننى أن أعود سالما الى حيث بدأت · وأدور فى الطريق الطويلة حول الغابة ·

– ٢ –

وكنت أتصور أن الحصول على صــــك أكيد بلقاء غزالة فى مثل جمال من حادثتها للمرة الأولى وحادثتنى يمكن أن يجعلنى حريصا على عمرى · لــكننى فوجئت بنفسى مندفعا فى الغابة من جديد · ومن طرفها الآخــر

هذه المرة • كأنما بغريزة الميل الى المغامرة حين الفرح • أو حب ملاعبة الخوف حين الانتصار • أو لعله عدم احتمال هذا القدر من المسرة •

وجدت نفسى موغلا فى الثلج • ثلج خالص لا يشوبه أثر أو دليل •• دليل على درب مأمونة أو فخ للموت • أخطو ثم أتوقف • ويستفزنى تجانس الثلج فأخدشه ببضع خطوات ثم أتوقف • أخاف وأجازف وأخطو ثم أتوقف • وأجد نفسى فجأة فى اندفاع طليق ••

- ٣ -

جريت نشوان نشوة كل المكتشفين القدامى والمحدثين والذين لم يأتوا بعد • أصيح عاليا بكل الكلام الحلو الذى عرفته فى اللغة الجديدة وأنا أجرى • غير هياب أجرى •• فقد كانت قدماى تخطوان على آخر أثر طبعته أقدامى على الثلوج فى الصباح • صارت الدرب مكتملة • شققت طريقا فى الغابة •

لا عرف ما الذى لفتنى بشدة الى حماقة الولد الخاصة وسط صخب الأولاد فى حديقة الثلج ·· كان يدحرج قطعة متجلدة من الثلوج انتزعها من مكانها قرب السور السلكى ·· يدحرجها قليلا ثم يحملها بين يديه ويربت عليها ويدورها ويسويها ثم يعود يدحرجها من جديد ·· بينما كان الاولاد يسوون أشياءهم من الثلـــوج وقـــد توزعوا بين جذوع الأشجار العارية ·· من يسوى دمية تستند على جذع ، ومن يسوى دبا برأس وأذرع كلهـــا مدورة ، ومن يسوى حملا نائما على جنبه ، وأرانب ، وجراء بآذان منتصبة ، وأخـــرى مدلاة ·· كلهـــا من الثلوج ·

كان الاولاد فى حديقة الثلج هذه متدثرين جيـــدا مثل دببـــة لطيفـــة ·· تتأرجـــح قفـــازاتهم المخلوعة المربوطـــة بالأكـــمام وهـــم يعمـــلون بهمـــة وصخب ·· وتتطاير أصواتهم الصغيرة العذبة بين الأشجار ··

بينما كان الولد وحده منزويا ويعمل فى صمت ·

كان لا يزال ينحني ويدحرج ، ويستوى ليسوى ، ويعود ينحني ليدحرج ، فسئمت التطلـــع اليه ورحت ببصرى الى لمة الاولاد أتأمل كائناتهم الصغيـــرة التى صنعوا ، لكننى مثل من ينجذب بقوة غامضـــة ، ألتفت بعد وقت قليل فاندهشت للكرة الهائلة من الثلـــوج راح يدحرجها الولد أمامه ، وهى أعلى كثيرا من قامته · من أين أتت هذه الكرة ؟ ومتى أتى بها ؟

وأعثر على الاجابة تتجلى أمامى اذ صـــارت الـــكرة تتنامى فى هذه المرحلة باطراد كأنها توشك أن تتضاعف حجما مع كل دحرجة · ويستعصى على الولد دفعها بينما الأولاد الذين تركوا كائناتهم الصغيرة وقفوا يتطلعون اليه فى انبهار ·

استقرت الكرة هائلة عند المدخل ، وتعاونوا لعمل رأس بقبعة لهذا الجسم المتكور الضخم ، وأحـــضروا له عصا من فرع يابس ، وأخذوا يتصايحون مطلقين عليه لقب « حارس الحديقة » · حارس الثلوج الذى تابعته يتكون على مهل ، على مهل ، ثم انه أطال المكث أمـــامى ولم يندثر سريعا كغيره من كائنات الثلوج ·

تصوير أشجار الحديقة

كان يقترب ويبتعد . يضيق عينيه ويفتحهما وهو يقترب ويبتعد . يمعن فى أشجار الحديقة من حوله ثم يعود ليضيف الى لوحته بفرشاته لمسة . نظرة ثم لمسة . نظرة ولمسة . فاقتربت منه لأرى الى أى حد نجح فى تصوير أشجار الحديقة ؟

لم يكن فى اللوحة آية أشجار ! ولا غصن واحد ! فقط : بضع حوريات عريانات يصعدن محلولات الشعر فى سماء ليل ترتعش فيه النجوم !!

« مجنون » أو « مدع » ـ قلت لنفسى ذلك ، واستدرت منصرفا عنه . لكننى ما كدت أخطو خطوتين حتى أقفلت راجعا اليه ..

لقد كانت فى أدائه براعة لا شك فيها . ثم ان الاشجار من حوله كانت كلها من نوع « شجرة ايفا » ، وتتكسر بين أغصانها المسدلة أشعة شمس الضحى .. تتكسر بارتعاش .

بقايا النار

فضلت أن أظل هاجعا فى الظلال بين الأشجار بينما اختاروا هم النزول الى البحيرة · لهذا آل أمر تنظيف الأوانى الى وقبلت ذلك كجزء من شعور عام بالتعاسة يجتاحنى . وأجده يجتاحنى فى مواجهة أى جمال يصادفنى فى اغترابى أو فرح · وقد كان هناك الجمال الخرافى للبحيرة المحاطة بغابات الصنوبر والتى تنطلق منها وتهبط اليها ، على فترات ، أسراب البط البرى محدثة صوت رشاش كبير مفرح (لم يكن يزيدنى الا تعاسة) ·

كانت الجمرات التى شوينا على لهبها لحم الضأن المتبل فى الأسياخ ، وسوينا الحساء ، لا تزال ملتهبة (وان بدت خامدة) · وكان على أن أطفئها ثم أهبط الى حافة الماء لأغسل الآنية المسودة والأسياخ المسودة التى تلتصق بها البقايا المحروقة من اللحم · ولما كنت أحس بالتعاسة تطبق على عنقى مزيدا بعيد نزولهم الى

الماء وتركى وحيدا ، فاننى ألقيت ، فى ذروة شعـــور باللاجدوى ، بالآنية والأسياخ جميعا فى بقايا النار الى جوارى • واستلقيت هامدا على العشب •

كان كل شيء يبتعث أحزاني الجنوبيـــة ، وأحس بيأس من أن أنفض تعاسات حياتي المتراكمة لعـــلى أتلامس مع ما يتاح لى من جمال العالم الشمالى وأفراحه •• خيام المستجمين المرحين الملونة بين جذوع الصنوبر الحمراء السامقة العطرة ، والبحيرة الهادئة التى يكلل أطرافها البعيدة ضباب بنفسجي شفيف وترصعها أجسام المستحمين المرحين الورديـــة •• أسراب البط البـــرى المرفـــرف ، وصـــدح كروانـــات الغـــابة التى لا تبين ، والفراشات سحرية الألوان ، كل هذا ما كـــان يوقظ داخلى غير احساس بأن الأمر قد انتهى وأن الروح قد تغضنت بفعل تراكم الآلام المزمنة التى كانت ، ومضى الوقت الملائم لتجديدها • ولم يخرجنى من تمادى أفكارى هذه غير رائحة شواط زاكم الى جوارى •

هيء لى أن الأواني والأسياخ يحترق معـــدنها اذ كانت محمرة الأطراف واسودادها يدخن برائحة شواط الزيوت والدهون المحروقة • فترة ، وتكاثف الدخـــان شديدا ثم انقطع ، فيما كانت الآنية والأسياخ تتلـــون

ببنية معتمة فى أثر الاسوداد صارت الى رمادية باهتة أخذت تبيض ، تبيض ، حتى خلصت الى لون معدنها البكر . فكأنها لم تستخدم قط ، لم تستخدم بعد .

ووجدتنى أهب واقفا واضعا يدى حول فمى كالبوق .. أصرخ بحماس منعش مناديا أصحابى حتى يخرجوا من الماء ويأتوا سراعا .. سراعا يأتون .

وضعته كيفما أمكن ، وسط المنضـــــدة ، فلم يلفت نظرى الذى انشد الى اتجاه آخر ٠٠ الى مفرش النايلون المزخرف الذى يكسو قرص المنضدة ، كان وسخا بشكل مخجل ٠٠ قطرات الشاى والعصائر المدلوقــة فى أوقات بعيدة تخثرت لامة فى داخلها الغبار والتراب ٠٠ صارت بقعا قذرة تغطى زخارف المفرش المنمنمة فاتحـة الألوان ٠٠

ساحة لفوضى الكسل المزرى ٠٠ علبة السكر الى جوار الملاحة لصق الفناجين المتيبسة فيها آثار القهوة وثفـل الشاى ٠ شرائط كاسيت مغبرة خارج أغلفتها ٠٠ أقلام ودبـــابيس وكسرات خبز وعلب كبريت وقصاصـات مكتوبة مبعثرة ٠ حتى أعواد تنظيف الأذن كانت تتناثر فى هذا الزحام صفراء ، قذرة ٠

أى كائن صرت ؟ والأرض تحت المنضدة ٠٠ التراب ٠٠ التراب ٠ والغبار من فرط تكاثفه وطول مدة التكاثف

تجمع فى كريات من الزغب القذر حول أرجل المنضدة . وأسفل الجدار •• حـــول أقدام الكراسى •• الكراسى المطمورة بالمناشف التى لم تغســل والمــلابس الداخليــة القديمة والجوارب والمناديل وقشر البرتقـــال اليابس الملتوى • أى جب • أى جب هذا ؟!

وكشحت بحذائى أسفل الحائط فكانت كريات الغبار خفيفة • تافهة الازاحة • أكثر •• أكثر • وأسرع الى الحمام لأحضر المقشة والجاروف •• هنا وهنا وهنا • ثوان قليلة لكننى ألهث • وهذه المنضدة • ليكن كل شيء فى مكانه •• كل شيء فى مكانه • والمقاعد • كل شيء فى مكانه • والآن ، لأفتح النافذة والباب •• ليحمــل تيار الهواء كل هذا الغبار المثار الذى استيقظ بعد دهر من رقاده •

ما أصفى نسمة الهواء صارت • وما أكثر ما تجلت مضيئة خضرة أوراق البيجونيا العريضــة وهى تحيط بباقة زهيراتها البنفسجية الحمراء ، فى الأصــيص ذى الغلاف المفضض الذى وضعته وسط المنضدة •

في البعيد

مكثت منكفئا على السطور ساعات كثيرة ، ساعات طويلة حتى أن الكلمـــات راحت تتمـــاوج والأحرف تتداخل ، وأفقد شيئا فشيئا الاتصال مع معنى النص ، وكأنه كتب بلا معنى ٠٠ بلا أى معنى ٠ وكان هو جالسا خلف مكتبه ، أمامى ، يرتشف كـــوب الشاى على مهل ويراقبنى ٠ ثم انه ابتسم ، ابتسامة ذات مغزى ، وهو يدعونى الى النهوض بسرعة والاطلال على شيء ما ، فى البعيد ، عبر النافذة ٠

نهضت ورحت أرنو من النافذة عبر شفافية الزجاج الى الخارج ، ولم أجد ما يلفت النظر ٠٠ نفس التـــلال الخضراء البعيدة ، وذرى الأشجار المتلامسة مع الأفق ، ولا شيء جديد فى المنظر ٠ اللهم الا سحابة بيضاء خفيفة تسبح فى البعيد الأزرق ٠٠ تسبح على مهل ٠ ولا شيء جديد ٠

لا شيء جديد ــ قلت له ذلـــك وأنـــا أستدير عن

النافذة ، لكنه ظل يبتسم محتسيا شايه على مهل ، مهل شديد ، مما أغاظنى • فنفضت مقعـــدى بعنف قبيــل جلوسى ، و بعنف شددت الكتاب تحوى •

فوجئت بالكلمات واضحـــة أوضح ما يكـــون ، والحروف ثابتة جليــة ، وعــاد المعنى يتصــل بى •• وأتصل به •

الجزء ، والكل

جنرال فى ملابس رسمية .. ومجنون ؟! تساءلت فى نفسى عجبا عندما التقيت به صدفة فى شارع الضاحية الهادئة الكبير . كان مقبلا وأنا أمضى ، ولم يكن منتبها الى اذ تحاذينا على الرصف ، ورأيته يلعب ملامحه بشكل بهلوانى ويفتح ذراعيه ليحتضن الهواء . ثم انه راح يمشى مقرفصا مقلدا مشية البطة حتى صار وراء ظهرى . وأمسكت عن الالتفات فورا ، حذر اهاجته .

بعد خطوات كثيرة عمدت الى الالتفات عندما أحسست أننى فى مأمن ، ورأيته فى الوراء .. هناك . كان مقرفصا أكثر وفاتحا ذراعيه على اتساعهما ليضم طفلا صغيرا يجرى اليه فى تهلل .. يتدحرج فى خطو الصغار الجميل الصعب . لا بد أنه كان حفيده .

وشعرت أنا بالتأثر ، والخجل .

في نهاية الغابة

فى نهاية الغابة ركنت دراجتى على أحد جذوع أشجار البتولا السامقة وانتصبت فاتحا ذراعى أتنفس ملء الرئتين من الهواء الشفيف الطازج وأدور حول نفسى . لكننى ما كدت أتم الدورة حتى جمدت فى مكانى مشدوها . كتمت أنفاسى ورحت أركع على ركبتى بطيئا بطيئا . أتحاشى حتى الحفيف مع العشب وأنا أتطلع مبهورا الى المنظر الخرافى الذى لم أتخيل وجوده فى هذا المكان ، على الحدود بين شرق أوربا وغربها .. سرب نساء صغيرات عاريات تماما ، ورديات تماما ، يتراكضن على الخضرة عند حافة بحيرة دائرية مقفلة لامعة الصفحة ، أمام قوس من البيوت الخشبية البيضاء . ولم يكن اتجاه الهواء يحمل الى سمعى أى صوت . كأننى فى حلم . ورحت أتذكر وأعى عبر انشداهى تلك اللافتات التحذيرية التى صادفتنى وأنا أتسلل بالدراجة عبر دروب الغابة : « يحظر الدخول . منطقة استشفاء

خاصة ». وبالفعل أحسست وأنا خارج المشهد كأنني أغتسل في ماء صاف وعذب . كأنني مولود يتطلع بانبهار وشغف باتجاه ضوء نافذة صباحي . ولازم خاطري ذلك الحلم الذي كنت أراه كثيرا في طفولتي الباكرة .. ملاءات حريرية بيضاء يملؤها الهواء كأشرعة أفقية .. تسبح طائرة وأنا أتقلب بانعدام وزن عليها . ولم يكن هناك أي احساس بجسمي وقد رقدت في العشب رافعا وجهي الى هذا الحلم الغريب أمامي .. سهل أخضر وبيوت بيضاء أليفة وبحيرة هادئة وسرب من العاريات الورديات يتراكضن بلا صوت . كن ورديات ربما بفعل حمية التراكض . ورديات وكأنهن صور في لوحة . لولا الحركة لقلت انهن صور في لوحة .. لوحة لفنان مرهف الحس شغوف لحد التسامي بهذا اللون الوردي . لقد كن ورديات تماما تماما . ثم اخترقت سمعي صفارة . وحمل الهواء الذي بدا كأنه استدار كلية نحوي في لحظة خاطفة صوت صرخات نسائية محذرة ، وتصارخ سرب من النساء المرتاعات . رأيت شرطيات في زي مختلط يخرجن من وراء البيوت ملوحات في الاتجاه الذي كنت أكمن فيه ، وكن يحملن مناظير مزدوجة وينفخن في الصفارات . ورأيت الاضطراب يبدد سرب النساء الصغيرات العريانات وهن يلذن بلفرار في

اتجاه البيوت البيضـــاء الصـــغيرة . فاختطفت دراجتي وطرت أهرب . أفــر بجنون عبـــر دروب الغـــابة ، ومن بين جـــذوع الاشجـــار . أفـــــر ممـــا تصورت أنه السجن في أوربا لو قبضوا على . أسابق الريح التى تثيرهـــا عجـــلات الدراجة المسرعـــة .. أسابق الطيور التى تفزع من أوكارها بين الأغصان .. أسابق فزع الفراشات المضطربة . وفى أول نقطة من نقـــاط الأمـــان أرتمي متنفســـا الصعـــداء تاركـــا الدراجة تندفع ثم تصطدم بجذع شجرة وتهوى . وألهث منطرحا على ظهرى فـــوق العشب .. أغمـــض عينى وأتنفس عميقا مستعيدا منظر الشرطيات المســـكات بالصفارات والمناظير وهن يلوحن باتجاهى . أدرك أننى نجوت من مأزق ما .. لعله السجن . السجن ؟ اتخيله فى الغربة . وأدور منقلبا على بطنى اذ يدهمنى احســـاس بجيشان مفاجىء ، حارق يتجه متركزا فى نقطة واحدة، فكأن خصرى سيشتعل .

غريب أننى لم أفكر في الجرى لحظة وقع عليه بصرى وقد فوجئت به قريبا منى أقرب ما يكون ، على بعد خطوات • وظل يشملنى هدوء غريب وشعور بالراحة والسلام ، فى داخلى ، وفى كل ما حولى •

ربما كان مبعث هدوئى وسلامى والراحة تلك أننى تمشيت طويلا كمتجول ، مجرد متجول ، فى المستشفى الجديد الذى سأعمل به ، دون أن تسند الى أية مهمات أو مسئوليات بعد • ومن ثم ، كنت طليقا لأول مرة فى حياتى العملية ومتخففا تماما من كل هذه الهموم التى تثقل على طبيب نفسى • وأحسست لأول مرة كم هو هادىء ووديع مستشفى نفسى تظلله الأشجار ويسبح فى البساتين • وتشبعت روحى بالحياد اللانهائى للمرضى المسالمين والمتجولين بتؤدة فى المماشى أو الجالسين فى سكينة على أرائك الجذوع تحت عرائش بهجة الصباح والعنب البرى

ربما ، وربما كان مبعث هدوئى وسلامى والراحة تلك ، أننى فى محاولة الخـــروج من المستشفى المترامى والمجهول بالنسبة لى ، ضللت طريقى ، ودخلت فى نطاق الغابة القريبة ، وتهت فيها طويـــلا حتى تشبعت روحى بروحها .

لقد شدتنى الغابة رغم لافتة التحذير بعدم الاجتياز التى صادفتها فى البداية . ورغم سور الشباك السلكية العالى الذى تسلقته بنشوة . شدتنى بكارة الظلال تحت عرائش الأغصان المتشابكة ، وبكارة النسيم الرطب فى هذه الظلال ، وبكارة الخطو فى مدارج يموهها العشب ويغطى أرضها ركام الأوراق المتساقطة فى مواسم خريف عديدة مضت ، ولم تطأها قدم ، فكانت تتحلل ببطء مرئى دون أن تدهس وكأن حشرات دقيقة خفية تتأكلها . بينما كان هناك دائما ، فى الأعـــالى التى تضىء خضرتهـــا الشمس ، وفى التجاويف التى يخفيها العشب وجنبـــات الزهور ، وعلى الأغصان .. ذلك الشدو الذى لا ينقطع لكروانات الغابة وكل طيورهـــا والعصافير . ومن ثم التقيت بالذئب .

كان يصعد داخلا بجسده البرى المرن بين شجيرات العشب الخفيضة ، وكنت أهبط ملتذا بذلـــك الشعور

المقاوم لجذب الأرض وللتلاطم المتسارع بين جـــذوع الأشجار الرطيبة • ولحظة وقع عليه بصرى توقف ،كأنه أحس بى أو أبصرني بجانبه • وتوقفت أنا الآخر •

التفت نحوى ، فصرنا متواجهين • وأحسست بكلمة « ذئب » تتردد داخلي ببساطة مغتبطة وكأنها كلمـــة « طفل » ، أو « وردة » ، أو « عصفور » • ووجدتني أخطو نحوه بجذب لا يقاوم •• كالمنوم ، أو المسحور ، دون أن تعتريني ذرة من خوف •

مر ببالى ، بالطبع ، ذلك الشريط من الحـــكايات والصور • عن فتك الذئاب بالحملان والبشر ، ومناورات جماعاتها للايقاع بالفرائس • ودوت فى الذاكرة أصوات رصاصات تردى ذئابا هائجة ، وصراخ ضحايا تنهشهم الأنياب • لكن هذا كله مر مرورا ناعمـــا ببالى ، وبلا تعليق من انفعال أو شعور • وكأنني لم أكن على مقربة خطوتين من ذئب •

لأكثر من خمس دقائق مكثنا ، أنا والذئب ، ينظر كل منا الى الآخر •• بفضول هادىء أواجهه ، وهو ينظر نحوى فى هدوء • يتململ فيحرك قليلا احدى قوائمه ، أو تسرى نبضة خفيفة فى ذيله ، وأنا أستريح في وقفتي

بقربه وأسترخي ·· أتأمل بصفاء ذلك الصفاءالكهرماني في قزحيتي عينيه ، ويأسرني النقاء الخالص لشعر ظهره الداكن وذيله المليء · ويعجبني بافتتان ذلك التناغم القوى فى بنائه حتى أفلت منى الهمس : « يـاه ·· ذئب جميل ·· جميل خالص » · بل وجهت اليه همسي : « أنت ذئب جميل ·· جميل خالص » · ثم انني ودعته قبل أن أستدير عنه لأهبط : « سلام ·· سلام » ·

وما أغرب أنني كلما كنت أمضى في هبوطي للخروج من الغابة ، كلما كان يغزوني الارتعاب ·· أتوجس أن الذئب ربما كان يتبعني · وتستولى على هواجسى حتى أخشى من مجرد الالتفات · ثم يفاجئنى السور السلكى بأسرع مما كنت أتوقع ، ويمـلؤنى ضجيج الشـارع القريب دفعة واحدة ، فأجد نفسى بلا تفكير أركض ·

رميت بنفسى على السور ورحت من فورى أتسلقه ، بطريقة لم أتصورها أبدا كامنة فى داخـلى ، وكأنني حيوان برى من فصيلة النمور أو الفهود أو القطط ·· وكأن أصابعى مخالب خرجت من أغمـادها لتنشب فى الشباك السلكية للسور أتسلقـه · بخفـة الوحش أو المرعوب أتسلقه · وكنت موقنا أن الذئب يتبعني ، وأنه سينهشنى أول ما ينهش من الظهر · وعند القمة صـك

سمعى بوضوح صوت سعاره ، فاستدرت ملسوعا لأرمى بجسمى بعيدا عن الغابة ، فى اتجاه الشارع ٠

لم أترك جسمى ليسقط سريعا ، اذ لبثت مطـويا بأعلى السور حتى استدرت وأطـللت عـلى الغابـــة ٠ مســـحت ببصرى أقصى ما تســمح بــه الفـــرج بين الأغصــان من مـــدى يمـــكن تتبعـــــه ٠٠ رأيــت مدارج العشب وجنبات الزهور البرية بين الجـــذوع ٠ رأيت بقع الضوء المخضوضر والظلال ٠ ولم أر فى كل هذا المدى أى أثر لذئب ٠ أى ذئب ؟!

وها أنذا أكتب غيرها

الشتاء ، وهى ، وأنا ..

ثلوج ناصعة البياض تغطى الأرصفة وشجر عار من الأوراق ينتصب داكنا وسط الثلوج . وألمح الـكرات النباتية الخضراء بين الأغصان العارية . فأهتف لمغزى أقصوصة فى الأفق وأنا أشير منبها اياها : « عش ظل أخضر للعصافير التى لم تهاجر . أى رحمة فى قلب الأشجار ؟ » .

وتضحك محبطة مغزاى : « ها .. هذه .. يميلا » ، مجرد نبات متطفل على أغصان الحور . يحيا فى البرد القارص على عصارة غيره . وهو محكم الالتفاف على نفسه ، لا يمنح أى عش لأية عصافير » .

وتضحك قائلة : « اكتب غيرها » .



الربيع ، وأنا ، وهى ...

آخر الثلوج تذوب فى الدفء الطـــالع • وجداول بدايات الربيع تسيل على الأرصــفة وفــوق الأسفلت منبئة عن قرب ازدهار الخضرة • وأنظر الى « اليميلات » المتطفلــة على أغصــان الحــور قائلا لهــا : « ستنبثق الأوراق سريعا من البراعم ، وتأخذ حقها من عصــائر أشجارها الأم • عندئذ لن يتبقى شيء للنبات المتطفــل الغريب • ستذبل « اليميلا » وتسود موتا » •

وتضحــــك مخيبــة ظنى : « هـــــا •• سترى •• ستتفجر الخضرة نعم • لكن لن تمــــوت « اليميلا » • ستظل مخضرة ، وان غبراء ، وسط الأغصان المخضرة» •

وتضحك ثانية وهى تقول : « أكتب غيرها » •



الصيف ، وهى وأنا ••

خضرة الصيف الشمالية الشهيرة • العالم المثقـــل بالاخضرار ، وارتعاش أوراق الحور المتخمة بالأخــضر العميق لحد الائتلاق فى الشمس • و « اليميلات » هناك •• ألمحها كامنة غبراء ، حيــة مازالت بين الأغصــان المخضرة • فأجرى مغتاظا أصعد الى أقرب شجرة حور • وتخايلنى وأنا أصعد صــور كــل الطفيليات الدنيــا والعليا • من أول ديدان الأمعاء وحتى البشر السفلة •

وتصرخ مرتعبة : « ماذا تفعل يا مجنون ؟ انزل · انزل · الحور أغصانه ضعيفة ستتكسر تحتك · انزل » ·

وأضحك عاليا ، قائلا فى ارتقائى : « انى أكتب غيرها » ·



(ولم تكن أغصان الحور بهذا الضعف الذي تخيلته · احتملت الأغصان صعودى حتى القمة · وهناك مددت يدى نحو كرة « اليميلا » الغبراء المخضرة · وما كادت أصابعى تلمسها حتى ·· هوت) ·

● حنين ●

راحة

خلعت فردة قفازى اليمنى ورحت أخدش الجليد على الزجاج ، وراحت هى تنظر الى ما أفعل فى هدوء .. كانت فى صف المقاعد المنفردة وكنت واقفا الى جوارها ، صدفة ، خائفا أن تفوتنى المحطة والترولى يمضى ويتوقف دون أن أتبين أى ملمح للدنيا فى الخارج .

كان ركام الأنفاس المتجمدة على زجاج النوافذ يحجب كل رؤية .. طبقة كثيفة من الجليد صنعتها درجة العشرين تحت الصفر ، رحت أحاول خمشها بأظافرى لأتبين ملامح المحطات فى الخارج .. بدأت بأصبع ثم اثنين ثم بلهفة رحت أخمش الجليد بأظافر يدى الخمسة . وبدا الشارع من الخارج شرطا ممزقة من الألوان التى تمرق .

كنت غريبا وحائرا فى اللحظة التى تطلعت الى فيها بعينيها الجميلتين الواسعتين . لعلها ابتسمت خفيفا ، لعلها كانت تكتم ضحكها من معركتى مع الجليد ، تأسى ،

أو تشفق .. لكنها على أية حال ساقتنى بنظرة عينيها الى نافذة الجليد المخدوش من جديد ..

رفعت يدها العارية الصغيرة ، الناعمة ، والوردية ، وبسطت راحتها على الزجاج المتجلد . وكنت انتظر أن تخربش من أجلي ، كما بدا لى من الوهلـــة الأولى .. لكنها لم تفعل ..

بضع ثوان ثم رفعت يدها عن الزجاج وهى تبتسم ، ابتسامتها الخفيفة تلك . وأدهشنى أن أرى طبعة راحتها وسط الجليد على الزجاج .. نافذة صغيرة رائقـــة الشفافية ، لم أر خلالها ملامح المحطات فقط ، بل أمكننى التطلع عبرها الى التلال البعيدة المغطـــاة بالثلـــوج ، والاشجار العارية القائمة عند الأفق ، والطيور المحلقـــة فوق ذؤابات الأشجار .

نجوى الشجر

ايرينا ، ياتفاحتى ٠٠ أما كان أفضـــل ألا ترسلى تلغرافك جنونى العذوبة هذا ونحن فى مدينة واحدة ، « مع هطول أول الثلوج أقبلك » ، فتجعلينني أهيم فى شوارع الصباح تحت نديف الثلوج حتى يجىء الموعد !

أتخيل لحظة جنونك الجميل هـذا عندما استيقظت مبكرة على هطول أول الثلوج ، وخرجت فى الصـــقيع للابراق : « مع هطول أول الثلــوج أقبلــك » ٠ خمس كلمات تبعثين بها فتكتسح كل نقاط الحراسة التى أحطنا بها قلبينا ، كل الحواجز ، وتندفـــع مودتنا الى منعطف جديد ٠٠ أهيم متأملا اياه على المدى غير المرئى ٠ أمشى متمهلا تحت دانتيلا الثلوج ، أخطو على ركام الثلوج ، وأتأمل ما سيكون بيننا ٠٠ وأتأمل الأشجار : عرتها من أوراقها أو كادت أهوية الخريف المنصرم ، فهى تكتسب مع البياض الناصع الهاطل عمقا للدكنة حتى توشك أن تبدو صافية السواد ، مبلولة ، تقطر ٠٠ تبدو لى وكأنها

تقاوم هذا البياض الجليل المنهمر عليها بآخر ما لديها من سخونة تدفعها نحو اللحاء ·· يتساقط عليه النديف فيذوب أولا بأول ويتساقط قطرات نقية عن الاغصان ·· قطرات تشغل بايقاع تساقطها كل المدى الذى أمضى فيه أو يتراءى لى ·· أهيم نشوان وخائف ·· فأنا ان أخذتك معى سأفقدك الكثير ، وان بقيت هنا سأفقد أكثر ·· سيكون على واحدنا أن يعوض فقد الآخر بتقريب عالمه البعيد اليه ومن ثم ازاحة العالم القريب بعض الشيء ·· هنا أو هناك ·· سيكون على أن أتعمد الحب فى مواضع ما يخص روحك ، وسيكون عليك نفس الشيء · وآه يا ايرينا من سأم التعمد ·· حتى فى الحب ·· « بيرفم سناجم تسلويوتيبيا » ، « مع هطول أول الثلوج أقبلك » ·· أردددها بلسانينا نشوان ، أهيم تحت كلة النديف الأبيض الحلمى ، مشمولا بايقاع ما تصنع الاشجار ·· وما أغرب ، يا تفاحتى ، أن أحس بكون هذه القطرات التى تتعلق بباطن الاغصان هنيهة ثم تتساقط ·· لا ينقطع تساقطها ، انهمارها ·· ما هى الا دموع الشجر ·· وآه من مكابدة الشجر ·· يا تفاحتى ، يا ايرينا ·

نصف راحة

سـألتها فرحا وأنا أحس بالتكور الصغير البازغ تحت يدى : « ايرينـــا ٠٠ لو جـاء ولدا ٠ مـاذا نسميه ؟ » ٠ وردت بسرعه ويقين حلم دائم : «ساشا » ٠٠ « ساشا » ؟! ـ رددتها شاهقا فى انفعال حتى حسبت أن شيئا ألم بى ، فارتفعت تسائلنى مرعوبة : « مابك ٠٠ مابك » ٠ وأجبت مهونا عليها : « لا شيء ٠٠ لا شيء ٠٠ فقط ٠٠ لقد كنت أريده أحمد » ٠ وراحت تجرب الاسم ٠ متمتمة : « آخميد ٠ آخميد » ٠ ثم سـكتت مقتربة بوجهها من وجهى فى ضراعة : « ساشا موخاميد ٠٠ موخاميد ٠٠ ساشا » ٠ ليكن ساشا يا محمد ٠٠ محمد ٠٠ ليكن ساشا ٠ وفى رقرقة عينيها الواسـعتين الجميلتين رأيت لأول مرة شدة غربتها عندما آخذهـا معى الى مدن الزحام والصهد والغبار والضجيج واللغـة الغريبة عنها ٠٠ غربتها الخالية من أغانى أوكرانيـا المنعشة المرحة ، ورقصات الطواحين المتواثبة الدوارة ، وبياض ثلوج الشتاء ٠٠ تلال خضرة الربيع ، والصيف،

وكل ألوان الطيف فى الخريف ·· لم أر لها أحدا بمثل هذا القرب مثل وليدها « ساشا » · ربما لمت فى اسمه طفولتهما المبتعدة كلها وحنان أبويها الذى كان وتدليل الجد والجدة المتنائيين وفى نفس الوقت لم استطع الا أن أرى أحمدى الصغير يدرج على أرض شارعنا الترابى الطيب المرشوش بالماء ساعـــة العصارى ·· يلعب فى ظلال بيوت الأهل والأصحـــاب المتواضعــــة الحبيبـــة ، وتقبيله لو تعثر فى غيابى أيادى الأهـــل والأصحاب · لكننى وجدت نفسى بين رقرقة عينيها وظلال البيوت ، أتنهد نابسا : « ليكن يا ايرينا ·· ليكن ساشا أحمد أو أحمد ساشا ، وليناديه كل منا كما يحب » · عندهـــا ، كانت فى حضنى تبدى أمائر امتنان القطط ، وكانت تواتينى نصف راحة القسمة ·

صوتك

قالت لى ايرينا : « محمد .. قل شيئا » .

قلت : « ليس لدى ما أقوله » .

قالت : « لا أريد كلاما .. أريد صوتك » .

فسحبت من الرف القريب مختارات من شعر بلوك وايسينين ويوشكين ، بلغتها ولغتهم ، ورحت أقرأ . لكنها سحبت من يدى الكتاب سريعا ، ونحته وهى تقول : « اللكنة تفسد الشعر » .

وعادت تقول : « أريد صوتك » .

فأغمضت عينى ورحت أقرأ ما يطيب لى قراءته عندما أكون وحيدا .. شيئا من سورة الرحمن ، وقصيدة للسياب ، وأخرى لدرويش ، ومقتطفات من الطيب صالح ، والنفرى .

وعندما فتحت عينى وجدتها تغفو على صدرى كطفل آمن . فسألتها فى خفوت : « نمت ؟ » .

فتحت عينيها الطازجتين مندهشـــــة وهى تقول :
« لا لا . أبدا . لماذا توقفت ؟ » .

ولم أكن أحب أن أتوقف ، ليس لأجلها فقط ، ولكن بالأكثر .. لأجل روحى .

لعله كان عربيا ، أو أمريكيـا لاتينيا ، أو من شبه القارة الهندية، فقد كان أميل الى السمرة ، ودقيق الحجم، وبلغته لكنة واضحة وهو يتساءل بعد أن جاء وتوقف الى جوار أحد الصيادين المنتشرين على صفحة « الدنيبر » المتجمدة : « لماذا لم تتجمد الاسماك أيضا هناك ٠٠ في العمق ؟ » ٠

كانت بعينيه السوداوين ظـلال حنين يترنح ، ولم يكن واضحا بضباب أنفاسه التى يكثفها صقيع العشرين درجة تحت الصفر أى أثر للخمرة ، وقد أقعى الى جـوار الصياد يتأمل الحفرة الغائرة في الجليد والتى يتدلى فيها خيط الصنارة٠ وكان يتمتم كأنه رجع الصدى لاجابـة الصياد على سؤاله : « تحت هذا الجليد دفء ٠٠ كأنـه في مياه البحار والانهار لديكم » ٠

« دفء ٠٠ كأنه في مياه البحار والانهار لدينا ٠٠ آه ، كأنه في مياه البحار والانهار لدينا » أخـــذ يردد

باستعذاب جنونى وهو ينزلق مدليا ساقيه فى الحفــرة ، مباغتا الصياد الذى جمده الذهول وأعاقه عن سرعـــة الحركة دثاره الصقيعى الثقيل ونصف زجاجة الفودكـا التى جرعها ليتدفأ ٠

وعندما استطاع الصياد أن يمسك بكتفيه أخـيرا ليخرجه ، تملص وهو يردد بطمأنينة بالغة : « لا لا ٠٠ لا تخف ٠٠ لا تخش علينا فى المياه الدافئة ٠ لا تخش علينا فى المياه الدافئة » ٠

مكث الصياد الشمالى مقعيا على أربع ، يحـــدق مذهولا فى الحفرة الفاغرة فى الجليد ٠٠ يحدق فى عتمة المياه الباطنية البعيدة التى لم تتجمد ٠ ثم راح يرفـــع وجهه المذهول ببطء الى العالم من حوله ٠٠ الى الضفاف المغمورة بالثلوج ، الى صفحة النهر المتجمد الناصــعة ، ونقاط الصيادين الداكنة المتناثرة عليها ٠

كان الصياد ينادى زملاءه ، لا للاغاثة ، ولـكن ٠٠ ليسأل أقرانه عن الامكانية الغريبة لتحول انسان جنوبى داكن الى سمكة بنية كبيرة ، لم يألف مثلها أبدا فى مياه « الدنيبر » ٠

عطش

قبيل أن أهبط الى نفق المترو تجلت في ذاكرتي محطة أتوبيسات « العتبة » في يوم قائظ • ووجدتني أتجه الى ماكينة العصير بالصودا • رغم أن الجو كان غائما ودرجة الحرارة منخفضة بالنسبة لهذا الوقت من أيام الربيع الشمالي • ورغم عدم شعوري بأي درجة من درجات العطش وترددي في الشرب ، فان يدي كانت قد أخرجت « الفكة » من جيبي وراحت أصابعي تفرزها بحثا عن قطعة من فئة « الثلاثة كابيكات » التي تلقم بها الماكينة لتصب كوبا من العصير •

ولما لم أجد معي « ثلاثة كابيكات » فانني تلفت حولي •• لم يكن هناك أي أحد على رصيف المحطة ، وكان كشك الجرائد مغلقا في ساعة الراحة • لكنني لمحت الصندوق الصغير في ظهر مظلة المحطة لمبته مضاءة مما يؤكد أنه يعمل وقد كتب عليه (١٥ كابيكا =

٣×٥) ، فاتجهت اليه اذ كانت معى قطع مديدة من فئة الخمسة عشر كابيكا ٠

وضعت فى « عين » الصندوق قطعة الخمســـة عشر كابيكا ، وسمعت جرس الاستجابة للاعطاء ، فمددت يدى مسرعا الى الفتحة السفلى لأتلقى (الفكة) ، لـــكننى فوجئت بالماكينة تخرج ثلاث تذاكر للمواصلات من فئة خمسة كابيكات لكل تذكـــرة ، فادركت أننى أخطـــأت قراءة اسم الماكينة ، وأدركت أننى لن أرتوى حـــالا ، فجننى شعور حارق ٠٠ بشدة العطش ٠

استغراب

طلعت عند « فتحى » و « سناء » ، وكان ابنهما « طارق » فرحا بأن يجيء اليهم ضيف ، يضع لعبه كلها على عربة الشاى ويدفعها أمامه مناديا : « لعب للبيع ببلاش . لعب للبيع ببلاش » ، فنضحك . ونضحك أكثر اذ يلقى فتحى بلهجته الصعيدية آخر نكتة عن الصعايده : « حسنين جرى على محمدين يقول له : محمدين .. الحق ، أبوك داس على رأسه القطر . فزعق محمدين : تانى ! » .

وامتد حبل النكتة حتى جاء الأكل .

طبخت لنا سناء ملوخية بالثوم المقدوح على شوربة بطة بالفريك ، وكان هناك خيار مخلل بالليمون والفلفل والكمون المرشوش ، والحلو لقمة القاضى . أكلنا حتى امتلأنا وأتينا على الأطباق كلها ، وآخر الأخبار العامة والخاصة . ثم سمعنا شريطا لسيد درويش بصوت حفيده .

وتواعدنا ، وتوادعنا ، ونزلت ٠٠

نزلت ، وفى الشارع مشيت بتثاقل من شدة التخمة ، وكنت أردد بمزاج ناعس أغنية سيد درويش : « والله تستاهل يا قلبى » ٠ وهيء لى أن الأشجار ربما تكون تكاثفت أو تغيرت بشكل ما ، والشوارع اتسعت وانتظم شكل المبانى ٠ ثم استغربت لكثرة « الخواجات » فى الشارع من حولى ٠٠ البنات الشقراوات والرجال الشقر والأطفال الذين يشبهون عرائس اللعب !

قلت في نفسي : من أين أتى كل هؤلاء الغرباء ؟ ولماذا أتوا الى هنا ؟ ٠ ثم بدأت أسمع لغتهم الأجنبية ، وهيء لى أننى سمعت هذه اللغة من قبل وأحس بايقاعاتها ٠ وكنت كالمذهول أتطلع الى وجوه الناس الذين يمرون بى وأمر بهم ٠ وعندما اصطدمت بأحدهم وأنا أمشى بجانبى فى التفاتة حادة ، وجدتنى أنطق بهذه اللغة الأجنبية : « معذرة ٠ لا تؤاخذنى » ٠

واكتشف فى أعقابها على الفور أننى ــ أنا ــ هنا ــ الغريب ٠

ضيوف

« محمد .. هل كـان عندك ضيوف بالأمس ؟ لقد سمعتك تكلم أحدا بالليل » يسألني جاري « فيكتور » في الصباح ، فأحار مرتين : ماذا أقول ؟ .. ولماذا يسألني ؟

قرب نهاية الليل أكون قد أنهكت تمامـا ، ولحظة نهوضي من خلف المكتب يلف دوار كحومات الهواء في رأسي . وتحين مني نظرة عبر النافذة الى الخارج . فلا أرى غير الليل .. ليل الغربة الموحش الذي يغرق بالظلام كل ما كان يسرى عن النفس في النهار من ألوان وحركة . وبمباغتة حنون أسمع من ينـاديني : « محمد .. يا محمد » ، فألتفت ورائي . انها أمي ..

أراها جلية كما يمكنني رؤية أصابعي هذه في نور ساطع ، ومع ذلك أحس بالعجـز عن الاقتراب منها . أقول لها : « أمي .. ازيك يا أمه » ، فتسألني : « ازيك انت يا بني .. عامل ايه ياضنايـه » . وأمد يدي أمامي ، نحوها ، وقد ضاعت مني كل الكلمات غير كلمة

واحدة أظل أرددها ، ومع ذلك أحس بأنها كافية وتقول عبر تلون النبرات كل ما يمكنني قوله « أمي ·· أمي » · وتمضي ·

أتهاوى على سريري ضعيفا ضعف سمكـــة منهـكة استسلمت لموتها على الشاطىء ، لكنني فجأة أنتفض ·· أنهض وأبحث ملهوفا عن ساعتي اذ يلسعني الخاطر ·· نعم ، فبحساب فارق التوقيت تكون هي مستيقظة هناك في « المنصورة » ، بعيد صلاة العشـــاء ، ويكون في مقدورها أن تلتفت لتطل على · انني لا أشك في ذلك ، ولا أخاف من حدوثه ، وان كنت لا أخبر به أحدا حتى لا يجرحني الارتياب ·

« لكن ·· لماذا تسأل يا فيكتور ؟ » · « لأنني أحيانا ينتابني الأرق ، وأكون في حاجة الى مسامرة الناس ·· هل يمكنني أثناءها أن أطرق الباب وأدخل يا محمد ؟ » · « لا لا · لا يافيكتور » ، أقولها بما يشـــبه الصراخ ، وأكتشف حدتي في الرفض · فاضطر الى التعليل أمامه بأن ضيوفي من بعيـــد ·· غربـاء ، ولا يتكلمون الا بالعربية ·

صوت السياب

لم أكن أصدق السياب تماما وهو ينادى ، مقروح الكبد ، من بعيد .. من وراء البحر ، من خلل الضباب والغيوم . تعوزه نقود السفر . وينادى : « عراق . عراق . عراق » .

ولقد سافر الاسبان الى أوطانهم ، سافر الأفارقة ، والآسيويون سافروا . كل زملائى سافروا فى عطلة الصيف الى أوطانهم وخلونى وحيدا فى وحشة مسكن المغتربين الكبير .

وها أنذا ، المصرى ، وحدى ، يرن صوتى بالأسى عبر ردهات عشرة طوابق خاليات .. ثلاثمائة غرفة لا يسكنها أحد ، اللهم غير صدى الصوت الغريب .. كلما ناديت مصر يجيبنى : « عراق . عراق . عراق » !!

انى لأهديها الأغنية

ربما لأننى كنت على ضفة نهر ، وربما لأننى كنت أديم النظر الى الماء ، وبالتأكيد لأننى كنت أشعر بحنين ساحق وغربة ٠٠ وجدت نفسى فى نسيم ضفاف « الدنيبر » الربيعية ، أغنى ٠٠ بشجن خالص أغنى ٠٠ أغنية للنيل البعيد وحب كان لى على ضفافه ٠

ولعله نسيم النهر ، أو رجع الصدى ، هو الذى حمل صوتى ـ الذى لم أتوقع ارتحاله بعيدا ـ اليها ، فاستدارت ، وتوقفت مرتكنة على السياج ٠ وعندما حاذيتها فى طريقى أوقفتنى سائلة بتردد : « أنت ٠٠ أنت الذى كنت تغنى بلغة ما ؟ » ٠ قلت : « نعم ٠ بالعربية » ٠

فرجتنى أن أكرر الغناء ٠

شعرت بالارتباك فى البداية ، ثم أطلق فيض الحنين وجمالها الوادع صوتى المتحشرج ، فأطاعنى ٠٠ أطاعنى الى درجة مذهلة ، وبدا شجيا حتى لسمعى ٠ وكان

لاستغرابى يشجيها · فسألتها ان كانت قد فهمت شيئا ؟ وأدهشتنى بقولها ان الأغنية عن حنين لحبيب بعيد وضفة نهر ما · ولما رأت دهشتى فسرت لى ، أنها أحست بذلك لأننى كنت أغنى بشجن بينما أرنو بافتقاد الى صفحة الماء وأبسط راحتى خفيفا على مدى الضفة ·

ثم انها استعادتنى الأغنية

لم أكن أغنى لأجلها تحديدا ، بل كنت أغنى ـ أكثر ـ لنفسى ، لانقطاعى الموحش وابتمادى · واذ بها تبكى رانية الى الماء ثم رافعة وجهها الى الضفة ، فأفهم بشعور يقينى أنها تعانى من افتقاد لبعيد ما وحنين لضفة نهر أخرى · ولما سألتها أكدت حدسى ، لكنها أربكتنى باضافتها أنها من نفس المكان على الضفة، لم تغادره أبدا · ثم أجهشت ·

تماسكت قليلا لتقول لى عبر تهدجات صوتها المرتعش ، انها لم تذهب الى أى مكان آخر لكن الأماكن هى التى تذهب بذهاب من نحبهم عنها ، والنهر ، لا يصير النهر ذاته · ثم مالت نحوى ، مجهشة من جديد ، وملت نحوها ·

تساندنا بتماس مرهف كأننا فى فضاء ·· مجرد

طائرين مبحرين في حنين ، أحدهما نحو مكـــان بعيد والآخر نحو زمان بعيد ·· التقيا في نقطة عـــابرة ، فتأسيا بلحظة نادرة من لحظات توقف الزمـــان وامتزاج الأمكنة · لم أعرف اسمها ، ولم تعرف اسمي ·· وانى لأهديها الأغنية ·

● وقفـة ●

عملية مرعبة ، نعم ·· ولكن ·· من كان يصدق أن كل هذا الحجر على قلب الانسان ؟ رغم الراحة ، والأمان الممدود ، والوفرة ·· بل ، لعل هذه الراحة ، والأمان ، والوفرة ·· هى ما حمل الى القلب كل هذا الحجـــر · لحظة بعد لحظة ، وكل لحظة تحمل الى غشـــاء التامور المسترخى شيئا من ملح الكلســيوم عبر تيــار الدم المتباطىء · واستحال القلب النمسان فى هذا البعـــد الشمالى الى سجين لا يشعر بسجنه فى جوف هذه الصدفة من التامور المتكلس ·· أطرق عليها عبر صدرى المشقوق فيجزم الرئتين برسوخ الحجر ، تصخــر ، والقلب نائم فيها لا يمتلىء حتى تمامه ولا يضخ بكل العافية · ولم التمام وكل العافية وكل شىء يأتى بسهولة فى هذا البعد الذى فررت اليه رافعا شعار « لا العين ترى ، ولا القلب يوجع » · وها هى العين لم تعد ترى صور الهموم فى وطنى ، وصار القلب حقا لا يوجع · لكنه ـ هذا القلب

ـ ليس معافى ، بل صار يمسكه الوهن · صحيح أن كل شيء يأتيني هينا فى مجتمع هبطت اليه بمظلة الغريب ·· أنعم بالدفء وأنا أطالع من وراء الزجاج بهاء مـــدن الثلوج الناصعة المضيئة ، وتأتيني المحبة دون أن أتجشم حتى دور العاشق ·· آكل من خبز ولحم وفاكهة صراع لم أخضه أبدا ضد حدة الفصول · لكن ، وأنا أرى الآن كل هذا الحجر على قلبى أدرك أننى لست بخير · ويتفتح وعيى على وقائع الحفـــرة المملوءة بالثلـــوج الآن فى الحديقة المواجهة والتى تمتلىء بنضارة العشب وتفتح الزهـــور فى الربيـــع ·· لقـــد احترق فيهـــا مائة ألف من المواطنين العزل بعد مذبحة بالرصاص وجنازير الدبابات · ثم خرج من الغابات مئات الآلاف ليدحروا الغزاة ويحرروا مدينتهم · ولم يكن هناك فى المدينة غير خرائب وعشب محروق وأهل مهروسين ومتفحمين · نفس المدينة التى أجد فيها الآن راحتى المجانية · راحتى المدفوعة سرا من دمى ·· جزيئة كلس من بعد جزيئة ، تجمعت لتسجن قلبى فى هذا الحجـــر الأبيض الجيـــرى الذى أراه ، وألمسه ، وأدق عليه فيفز عنى الرنين ·· تصخر الحجر ·· وفى رنين الفزع أرفع يدى بالازميل القاسى وأضرب ·· ضربة ، فتتطاير من صدفة التامور المتصخر شظية تترك مكانها نافذة صغيرة يطل منهـــا

نسيج القلب ·· ورديا نبيذيا أحمر يطل ، حيا لا يزال ·· ينادينى لأعاود رفع ازميلى هذا ، ازميل الرجوع ، وأضرب ·· أضرب ·· أضرب ·· أضرب · والخطر مع كل ضربة ينذر بقطع وعاء دموى من الأوعية التاجية الرقيقة ·· تتبدى محيطة بالقلب كشبكة رى قانية مرهفة · لكننى أواصل الضرب ، لأعود · ستعود العين ترى الهموم ، نعم · وسيعود القلب يوجع · ولعله سيكون وجعا أشد ، بعد هذا البعد ، هذا الرغد ·· الذى كان ·· وجعا لقلب مكشوف فقد تاموره ·· قابل للاختلال بهزة ، أو الانجراح بلمسة ، أو الانفجار فى انفعالة صغيرة زائدة ·· لكن المؤكد أن هذا القلب المزاح عنه الحجر سيكون قادرا على الامتلاء حتى تمامه ، وضخ الدم فى العروق غزيرا · ولعل هذا فى حد ذاته يكتسح الألم ·

• فى طريق الرجوع •

تبعا لنظرات الكراهية التى كان يشذرنى بها صامتا كلما تواجهنا عرضا ونحن جاران فى غرفتين متقابلتين بفندق شارع الميناء فى بيريه رجحت أن الصوت العالى السكران صوته ، رغم أننى كنت داخل غرفتى وهو فى سكره لا يدرك أننى أسمعه بوضوح •

كان الشيء المفزع أننى رجحت كونه يوجه كلماته الفظيعة الى « نيكول فواتى » ، فهذا موعد قدومها وهى لا تتخلف عن موعدها قط • ولا بد انه قطع عليها الطريق فى الردهة بين الغرفتين ، وراح يهدر : « أيه •• ما الذى يعجبك أيتها الأوربية فى هذا العربى الجدى ؟• أنه يفعل من الخلف ؟ هل يفعل من الخلف ؟ نحن معشر الأوربيين نستطيع أيضا أن نفعل » •

لقد سمرنى حديثه فى مكانى قرب الباب ، سمرنى لأنه لم يكن هناك ما يمكن عمله كما تصورت لحظتها

الا قتله . ليس لأجل نفسى تحديدا ، بل أكثر لأجل « نيكول فواتي » النادرة . والتي يستحيل توجيه مثل هذه القذارات اليها ، وبملابسات معرفتي بها . فهى ببساطة امرأة لها سمو وجمال الفكرة . أمها بولندية وأبوها فرنسى وهى تسوح فى الدنيا باحثة عن ملامح الفنون فى الحضارات القديمة . وعندما تعارفنا صدفة فى بهو الفندق ، جمعنا ولع مشترك بجمالية انسان الحضارات الأولى . وكنا نلتقى لنتبادل المعارف فى هذا الشأن ، لم نتجاوزه أبدا ، ولم نرد .. لا هى ، ولا أنا . فقد كان الحديث بيننا مشبعا لحد التسامى ولحد التحليق .

بعد دهر من الجمود استطعت أن أمد يدى وأفتح الباب .. فتحة صغيرة لكنها كانت كافية لكى أرى شبحه وهو يتوارى مسرعا خلف باب غرفته ، وأرى « نيكول فواتي » أمامى جامدة مذهولة .. بيضاء كالثلج ، حتى اننى رجحت كونها أصيبت بصدمة وعلى وشك السقوط على الأرض . فمددت لها يدى .. مددت يدى ببطء ذاهل ، عبر ذهولى أنا الآخر ، فراحت تمد يدها ببطء .. ثم خطت خطوة ، فخطوة . ورددت أنا الباب بقدمى ، فاذا بنيكول فواتى، كلها ، في حضنى ..

تنهار • ثم ان الجسدين راحا ، كأنما لا أراديا ، يتواطآن معا فى حراك كتوم ، كأنه دفع وسواس قهرى لا يمـــكن مقاومته ، للدخول فى هذه الحالة الغريبة •

كمنجة .. للبحر

يقولون اننا سنسأل في الآخرة عن أى امرأة نحب أن تعيش معنا في الجنة من بين كل النساء اللائى عرفناهن في الدنيا . ولو تصورت أن هذا السؤال يوجه لى لأخترت ، رغم كل شيء ، وبلا تردد : « أندرولا » .

« أندرولا » التى لم أعرفها غير ثلاثة أيام ، مسافة ابحار السفينة المتمهلة من استانبول ــ حيث صعدت . الى لارناكا ــ حيث هبطت ، بينما كنت أنا قادما من أوديسا ووجهتي الاسكندرية .

كانت من العذوبة والبهاء والدفء بحيث تجعل الانسان يتألق أمامها ، فيصير ألطف وأكفأ مما عرف نفسه أو عرفه الناس في حياته كلها .. يتفوق على نفسه ويعطى أفضل ما عنده فى كل شيء . هذا ، اذا وقع في دائرة بهائها مثلما وقعت ونحن نأوى الى قمرة واحدة . وفي مهجعين متجاورين بالطوابق الأولى من أسرة السفينة .

كانت لا تترك من يدها « كمنجة » بنفسجية الغلاف ألححت عليها مرارا في النهار أن تسمعني عزفها ، لكنها ظلت تتهرب • وفي الليل كففت عن الحاحي اذ كنا ننقل وسائدنا الى الأطراف المتقاربة من المهاجع ونقضي سواد الليل كله نتهامس حتى لا نـزعج النـائمين معنا في القمرة • ونزحف على بطوننا لنختلس القبل التي لن يغادر طعمها الحلو فمي ، أبدا ، مهما حييت •

ولما كانت سفينتنا تقترب من لارناكا التي تبـدو عمائرها البيضاء طافية فوق الماء بغير أرض ، قلت لها ضاحكا بجدية لم أثق بمثلها عمـري : « أندرولا •• اختاري •• اما أن تقولي للارناكا وداعا وتواصلي مـع حتى الاسكندرية • أو أقول أنا للاسكندرية وداعـا وأهبط معك في لارناكا ؟ » •

قالت بضحك لم أر حزنا في مثله : « جميل •• أجيء أنا معك ويذبحني أهلك ! أو تجيء أنت معي ويذبحك أهلي ! ماذا تختار ؟ » • ولما رأت دهشتي ازاء لغة الذبح هذه ، أسرت لي في تأثر شديد بأن أباهـا القبـرصي اليوناني قتله القبارصة الأتراك وعلقوه مشنوقـا في عارضة باب محل الفواكـه الذي يمتلـكه عند الخـط الفاصل • وعندئذ انتابتها توترات جنونية وأخـذت

تضرب افريز شرفة غرفة الحبال الخلفية التى توارينا فيها بصندوق الكمنجة ، ضربات عنيفة حتى انفتح ٠٠ واذ بداخله بندقية ٠

لم أحس أبدا مع مفاجأتى بأنها كذبت على أو أننى خدعت ٠٠ بل أحسست أكثر بالحزن والألم لكونها مثقلة بهذا الوزر ، والى هذا الحد ٠ وقلت لها مشيرا الى الصندوق قبل أن ترسو السفينة : « ليتك تلقيه فى البحر يا أندرولا » ٠ فنشجت وهى تردد : « كم أحب لو ألقيه فى البحر ٠ آه كم أحب » ٠

وعندما كانت السفينة تستدير عن لارناكا عائدة الى البحر ، لم تعد عندى أندرولا ٠ ولكم شعرت بالوحشة ، وبالفجيعة ٠٠ أصابتنى حمى مفاجئة واكتئاب شديد ، حتى أننى لم أهبط مع سائر الركاب للاطلال على اللاذقية التى أحبها ٠ ومكثت وحدى فى قاع القمرة الخالية ٠

فهـــرس

صدر من هذه السلسلة :

● الرجل المناسب	(قصص)	فتحي غانم	١
● دموع رجل تافه	(قصص)	عبد الرحمن فهمي	٢
● الجميع يربحون الجائزة	(قصص)	أبو المعاطي أبو النجا	٣
● بالأمس حلمت بك	(قصص)	بهاء طاهر	٤
● رباعيات	(قصص)	شكري عياد	٥
● من قتل الطفل	(مسرحيتان)	عبد الغفار مكاوى	٦
● منتصف ليل الغربة	(قصص)	جمال الغيطاني	٧
● رشق السكين	(أقاصيص)	محمد المخزنجي	٨
● وعلى الأرض السلام	(قصص)	فاروق خورشيد	٩
● الأشواق والأسى	(روايه)	عبد الحكيم قاسم	١٠
● والبحر ليس بملآن	(رواية)	جميل عطية ابراهيم	١١
● ان تنحدر الشمس	(قصص)	سحر توفيق	١٢
● لا تسقني وحدى	(رواية)	سعد مكاوى	١٣
● كهف الأخيار	(قصص)	شكرى عياد	١٤
● محطة السكة الحديد	(قصص)	ادوار الخراط	١٥
● حصار القلعة	(م. شعرية)	محمد ابراهيم ابو سنة	١٦
● اربعة فصول شتاء	(قصص)	محفوظ عبد الرحمن	١٧
● سارق الكحل	(قصص)	يحيى حقى	١٨
● انا الملك جئت	(قصص)	بهاء طاهر	١٩
● تاريخ حياة صنم	(قصص)	عبد الرحمن فهمي	٢٠
● الوداع : تاج من الشعب	(قصص)	عبده جبير	٢١
● النجوم العالية	(أقاصيص)	محمود الورداني	٢٢
● قلوب خالية	(رواية)	عبد الرحمن الشرقاوى	٢٣
● الشجرة والعصافير	(قصص)	ابراهيم عبد المجيد	٢٤
● عطشان يا صبايا	(قصص)	سليمان فياض	٢٥
● طرف من خبر الآخرة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٢٦
● طعم القرنفل	(قصص)	جار النبى الحلو	٢٧
● السحر الأسود	(رواية)	شفيق مقار	٢٨

● تسلق الجدار الاملس	(قصص)	حسني عبد الفضيل	٢٩
● احتضار قط عجوز	(قصص)	محمد المنسي قنديل	٣٠
● رحلة الليل	(قصص)	عبد الله خيرت	٣١
● حبات النفتالين	(رواية)	عالية ممدوح	٣٢
● ارض لا تنبت الزهور	(مسرحية)	محمود دياب	٣٣
● الخــوف	(رواية)	عبد الفتاح الجمل	٣٤
● ما اجملنا	(مسرحيتان)	محفوظ عبد الرحمن	٣٥
● لم يعد الضحك ممكنا	(قصص)	يوسف القعيد	٣٦
● حبال السلم	(قصص)	فاروق خورشيد	٣٧
● الختان الصيفي	(قصص)	احمد الشيخ	٣٨
● يوسف والرداء	(قصص)	ابراهيم اصلان	٣٩
● مسألة لبني	(مسرحية)	يحيي عبد الله	٤٠
● عكس الريح	(قصص)	يوسف ابو ريه	٤١
● عــسل	(قصص)	محمد جبريل	٤٢
● عفاريت الجبانة	(مسرحية)	نعمان عاشور	٤٣
● الطائر والنهر	(قصص)	عائد خصباك	٤٤
● زهر الليمون	(قصص)	علاء الديب	٤٥
● الطواحين	(قصص)	امين ريان	٤٦
● رائحة البحر	(رواية)	سامي فريد	٤٧
● حضرة صاحب الدولة	(مسرحية)	عاطف الغمري	٤٨
● اسباب للكي بالنار	(قصص)	خيرى شلبي	٤٩
● السين والطلسم	(قصص شعرى)	بدر الديب	٥٠
● الملاك الأبيض	(قصص)	محمد زفزاف	٥١
● ايام الانسان السبعة	(قصص)	عبد الحكيم قاسم	٥٢
● هذا ما كان	(رواية)	محمد البساطى	٥٣
● الغرف الأخرى	(رواية)	جبرا ابراهيم جبرا	٥٤
● اغنية حب حزينة	(قصص)	طلعت فهمي	٥٥
● انكسار الحروف	(قصص)	ربيع الصبروت	٥٦
● اخبار الدراويش	(رواية)	عبد الوهاب الأسواني	٥٧
● النيل والغضب	(قصص)	فتحي عبد الفتاح	٥٨
● الشيء	(رواية)	نهــاد شريف	٥٩

العدد القادم :

● رجال من الرف العالى	(قصص)	سليمان الشطى

فى أعدادنا القادمة

● عيون الحب	(قصص)	على خيون
● رايت النخل	(قصص)	رضوى عاشور
● السلحفاة	(قصص)	حسونة المصباحى
● المستحيل والقيمة	(تجربة فى الديالكتيك)	بدر الديب
● النعيم العائم	(مسرحية)	توفيق الحكيم
● مؤامرة البحر	(قصص)	اسماعيل العادلى
● ساعات الكبرياء	(قصص)	ادوار الخراط
● تلك الأشياء	(قصص)	سامى فريد
● احتمالات	(قصص)	محمود جندارى

الأعداد الممتازة القادمة

● المعذبون فى الأرض	(رواية)	طه حسين
● قنطرة الذى كفر	(رواية)	د. مصطفى مشرفة
● خيوط العنكبوت	(رواية)	ابراهيم عبد القادر المازنى
● ابراهيم الثانى	(رواية)	ابراهيم عبد القادر المازنى
● نائب عزرائيل	(رواية)	يوسف السباعى

تطلب كتب هذه السلسلة من

● باعة الصحف ● مكتبات الهيئة ● معارض الكتاب بداخل مصر والخارج

● المعرض الدائم للكتاب ● مكتبات الهيئة المتنقلة بالأحياء والأقاليم

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧٧٢١ /١٩٨٩

ISBN ٩ ـ ٢٢٥٩ ـ ٠١ ـ ٩٧٧ ـ

هذه مجموعة من القصص ، تقدم كلها تنويعات على تجربة الغربة والاكتشاف . وهى تجربة تملى ان تكون كتابتها شعرا او مثل الشعر ، والعلاقة بين القصة وبين القصيدة علاقة مشهورة منذ قديم . ولكن محمد المخزنجى واحد ممن يتيحون لنا اكتشاف ابعاد جديدة لهذه العلاقة الفريدة ، ليس فقط بين القصة والقصيدة ، ولكن ايضا بين تجربة الغربة والاكتشاف وبين الشاعرية او الشعر . فى تجربة الغربة اكتشاف ضرورى ، واكتشاف آخر لا يحققه غير الشاعر حين يغترب . الضرورى هو اكتشاف العالم (المكان والناس) الذى فرض الغربة واحتواها . اما اكتشاف الشاعر فهو إعادة ادراكه لذاته وللوطن الذى اغترب منه ، وللطريق الذى سار فيه رحلة غربته وعودته ، ولكنوز معرفته الجديدة بكل مكوناتها : ذاته ، والموضوعات الاخرى . إننا نتلقى فى هذه الكتابة — هنا فى هذه المجموعة — نموذجا فريدا من العلاقة بين مدركات الحواس وبين معطيات الوجدان وذكريات الذهن واسلوب التفكير : علاقة تحولها هذه الكتابة بالذات إلى « وجود » لم يوجد قبل ان يكتب ، ولم يكن يمكن وجوده لولا هذه الكتابة : لولا إقامة هذه العلاقة الرباعية الاطراف ، الفريدة ، وكتاباتها . وهو وجود ، فوق انه لا يحاكى « الواقع » ، فإنه لا يسعى إلى ان يوازيه ، بل هو يغرق فى « الواقع » لكى يخرج بمعرفته لا بصورته ، ثم لا يبوح بالمعرفة ، وإنما ينشد القصيدة نشوان بما عرف . فهل يرجع هذا التفرد إلى نوع شاعرية المخزنجى ، ام إلى نوع شاعرية التجربة ، ام إليهما معا ؟!!

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب